بغـــداد 1869 – 1914
رؤية جديدة

الدكتور محمود عبد الواحد محمود
قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة بغداد
العراق – بغداد

ÖZET[1]

1869-1914 Bağdat

Farklı Bakış

Dr. Mahmud Abdulvahid Mahmud

Bağdat Üniversitesi Edebiyat Fak. Tarih Böl. Bağdat/IRAK

Makalede yukarıda belirtilen döneme ilişkin farklı bir değerlendirmede bulunma gayreti sergilenmektedir. Bu manada özellikle 1869-72 yılları arasında Bağdat'a atanan Mithat Paşanın gerek ülke genelinde ve gerekse Bağdat merkezinde gerçekleştirdiği ıslahatlardan bahsedilmektedir.

Bu dönemin önemine değinen araştırmacı, Avrupa'da ortaya çıkan yenilikleri, Mithat Paşa'nın büyük bir arzu ile Irak'ta da benzerlerini yürürlüğe koymaya gayret sarfettiği, bu çerçevede de tapulama, yeni askeri düzen, buharlı gemilerle nehir taşımacılığı, resmi eğitim yapan modern okulların açılması, Bağdat ticaret odası, matbaanın kuruluşu ve gazete basımı, tarım ıslahı ve sulama işleri, Bağdat'ta tramvayın inşası, yeni idari binaların yapılması…vs alanlarında yenilik çalışmalarını gerçekleştirdiği belirtmektedir. Buna ilaveten ıslahatların Bağdat ve Irak halkının fikri oluşumuna önemli tesirlerde bulunduğunu da ifade etmektedir. Bu dönemin Irak toplumunun bir kırılma noktası olarak görüldüğünü belirten yazar, bu çağı transitional period "geçiş dönemi" olarak tanımlamaktadır.

Sonuç olarak, eğitim ve modern okulların açılmasıyla fikri planda ortaya çıkan değişimler, ıslahatların orta çıkardığı sosyal ve iktisadi etkiler ile Bağdat'ta köklü toplumsal bir yapı değişiminin yaşandığı, burjuvazi sınıfı, işçi sınıfı gibi toplumsal yapıda yeni unsurların ortaya çıktığı, dolayısıyla bu dönemin Bağdat tarihinde farklı bir yere sahip olduğu izah edilmektedir.

[1] Bu makalenin Türkçe özeti Doç. Dr. Aydın ÇELİK tarafından yapılmıştır.

على الرغم من الاهتمام الواسع من الأكاديميين والمتخصصين في تاريخ العراق في العهد العثماني، وصدور الكثير من المؤلفات والكتابات الجادة والمتنوعة عن هذه المرحلة التاريخية، فأن هناك حاجة ماسة إلى دراسات أخرى معمقة تناقش هذا التاريخ وفقاً لما يصدر من دراسات جديدة وآراء وطروحات مطورة. ويعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر مرحلة مهمة ومعقدة، شهدت تحولات عميقة في بنية المجتمع العراقي عموماً والبغدادي على نحو خاص. ووفقاً لذلك، خصص العديد من المؤرخين والأكاديميين العراقيين والعرب والأجانب مؤلفات مهمة ورسائل وأطروحات علمية،تناولت هذه الحقبة، منذ عهد مدحت باشا وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام 1914.

كان البحث الرائد للأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد في مجلة الحكمة العراقية(1)، قد قدم إضافة جديدة حول أهمية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأثره في أحداث تحولات مهمة في المجتمع العراقي عموماً والبغدادي على نحو خاص.البحث الحالي مناقشة لفرضية المؤرخ الأكاديمي الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد بشأن البداية الحقيقية لبداية تاريخ العراق الحديث والمعاصر، وفقاً لدراسة التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بغداد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ نفترض أنه إذا كان العراق قد شهد بدايات تحول جديدة منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام 1914، فان بغداد كانت مركزاً لهذه التحولات ومنها انطلقت إلى بقية المدن العراقية الأخرى، بمعنى أن بغداد كانت عنصراً فاعلاً في أحداث تحول حقيقي في المجتمع العراقي بأنماطه المتعددة، مما هز أسس النظام الإقطاعي القائم آنذاك، وأدى إلى بداية مرحلة جديد أدت فيما بعد إلى تطورات بطيئة لكنها فاعلة في بنية المجتمع العراقي.

أصبحت بغداد عاصمة للدولة العباسية، ومنذ ذلك الوقت أصبح لها مكانتها السياسية والاقتصادية والفكرية في العالم العربي، على الرغم من المحن التي مر بها العراق منذ سقوط الدولة العباسية في عام 1258، وسقوط بغداد على أيدي المغول، وحتى خضوع العراق للحكم العثماني منذ القرن السادس عشر. وعلى الرغم من تقسيم العراق إلى ثلاث ولايات رئيسية، بغداد والبصرة والموصل، ظلت بغداد مركزاً للحكم العثماني، وخضعت الولايتين الأخريين إلى بغداد، بوصفها مركز الحكم العثماني(2).

أن التحولات الكبيرة التي شهدتها القارة الأوربية منذ القرن الخامس عشر، مروراً بحركة الاستكشافات الجغرافية والنهضة الأوربية وحركة الإصلاح الديني، ثم عصر التنوير في القرن الثامن عشر، أثرت في المجتمعات الأوربية وجعلتها تتجه إلى ما وراء البحار لاستغلال ثروات هذه البلدان. وكان العراق يمثل يوم ذاك فراغاً اقتصادياً، بل وحتى سياسياً ينطوي على طاقات كبيرة كامنة مؤهلة للانطلاق

والتغيير. وقد بدأ العراق يندمج بالأسواق الرأسمالية العالمية منذ بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وجاء افتتاح قناة السويس عام 1869 بمثابة قوة دفع مهمة أضفت على عوامل عملية الاندماج تلك بعداً جديداً(3).

مرت الدولة العثمانية بحركات أصلاحية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان إصدار خط شريف كولخانه سنة 1839، وهمايون سنة 1856، استجابة للمؤثرات الأوربية، ومحاولة لإصلاح بعض مؤسسات الدولة العثمانية وفقاً للأنظمة الأوربية(4). ويطلق على هذه المرحلة في التاريخ العثماني عهد التنظيمات التي امتدت مؤثراتها إلى العراق، إلا أن الإصلاح الحقيقي الذي أثر في المجتمع البغدادي كان في عهد الوالي مدحت باشا(1822 – 1883)، الذي تولى ولاية بغداد بين 1869 و1872. عرف مدحت باشا بأنه من رواد الحركة الإصلاحية والدستورية في الإمبراطورية العثمانية، وأليه يرجع الفضل في صدور الدستور العثماني سنة 1876. تأثر بمظاهر الحضارة الغربية، وأظهر قدرات إدارية ممتازة في المناصب التي تقلدها على ولاية الدانوب ونيش والطونة في البلقان (1860- 1868)، إذ قام بإصلاحات مهمة في وجه تعقيدات واضطرابات واسعة(4).

وصل مدحت باشا إلى بغداد في 30 حزيران 1869 مزوداً بصلاحيات استثنائية لتنفيذ الإصلاحات في العراق وتقوية السلطة المركزية للدولة، فكان رئيساً للجهاز الإداري وقائداً للفيلق السادس، فامتلك بذلك السلطتين الإدارية والعسكرية. ويوضح فرمان تعيين مدحت باشا أهمية بغداد بالنسبة للدولة العثمانية، إذ يشير فرمان التعيين: "أن خطة بغداد الجسيمة من أعظم القطع التي تتألف منها ممالك دولتي العلية المحروسة... ولما كانت أعز الآمال والمطالب لسلطتي الهمايونية أن تحصل على كافة أسباب العمران... أعهد بهذا الأمر للياقتك في إدارة الولاية ملكياً وعسكرياً "(5).

ويشير عالم الاجتماع العراقي، المرحوم الأستاذ الدكتور علي الوردي، "أن مدحت باشا لم يكن والياً عادياً كغيره من الولاة الذين حكموا العراق في العهد العثماني، أنه كان واحداً من عظماء الرجال، ولم تكن ولايته في العراق سوى فترة قصيرة من حياته المليئة بالأعمال التي غيرت مجرى التاريخ العثماني "(6).

كانت أول أعمال مدحت باشا في العراق إصدار نظام الطابو، لإيجاد حل لمشكلة العشائر وإنهاء حركات تمردها بتوطينها على الأرض، وذلك بتوزيع الأراضي الأميرية قطعاً مختلفة وتوفير مياه الري لها مقابل دفع مبالغ بسيطة (المعجل) وتقسيط المتبقي، وبذلك يمكن تحويل الولاء من العشيرة إلى الأرض (7). حققت سياسته في هذا المجال نجاحاً ملحوظاً في بذر بذور التفكك العشائري، ولكن ليس بالطريقة التي كان يهدف إليها القانون من تحويل الفرد العشائري إلى مالك

أرض مستقل، بل عن طريق اغتراب هذا الفرد عن أرضه وتحويله إلى مجرد مستأجر، إذ لم يكن بمقدور أفراد العشائر أن يهيئوا المال لدفع (المعجل) للحصول على سندات الطابو. ومن جهة أخرى، كان القانون العثماني يمنع الملكية المشاعة، وبذلك حرم العشيرة هيئة اجتماعية، من قدرة شراء الأرض، إلى جانب أن أفراد العشائر من جهتهم لم يكونوا راغبين في شراء السندات، لاعتقادهم أنها سترتب ضرائب عليهم وتجعلهم عرضة للتجنيد. هذا الموقف أفسح المجال أمام الشيوخ وتجار المدن وكبار الموظفين لشراء الأراضي والحصول على السندات، مما ولد بداية مشكلة جديدة هي مشكلة الشيوخ الغائبين،الذين كانوا في الغالب يعيشون في المدن ويطالبون ببدل موارد أراضيهم التي كان يزرعها أفراد العشائر، فكان لذلك نتائج اقتصادية واجتماعية عميقة الأثر، لأنها مست جوهر العلاقات الإنتاجية في القبيلة وحولت شيوخ العشائر إلى ملاكين كبار للأراضي الزراعية ترتبط مصالحهم بالحكومة التي أصبح بمقدورها الاستعانة بهم لجباية الضرائب وإقرار الأمن وإنعاش الزراعة وفرض الخدمة العسكرية على أفراد قبائلهم(8).

أهتم مدحت باشا بإصلاح النظام العسكري، ولاسيما أن بغداد كانت مقرا للفيلق (الجيش) العثماني السادس، منذ عام 1847، واستهدف إدخال العراقيين بدلاً من العناصر الأجنبية لضمان ولاء السكان للجيش المرابط على أراضيهم، وتعويضاً للنقص في عدد الجنود الأجانب الذين لا يمكثون إلا مدة قصيرة بعدها يسرعون بالعودة إلى بلادهم. وطبق مدحت باشا لتحقيق هذا الهدف نظام التجنيد الإلزامي، وحالفه النجاح في عدد من المدن العراقية، وفي مقدمتها بغداد، على الرغم من الإخفاقات وحدوث صدامات مسلحة بين الجيش والعشائر في مدن عراقية أخرى، استطاع الجيش القضاء على هذه التمردات. وأسفرت إجراءات مدحت باشا عن تضاعف عدد أفراد الجيش، وصار يتألف من ست عشرة كتيبة وكتيبتي خيالة وكتيبة مدفعية. وليجهز هذا الجيش بالضباط، أسس مدحت باشا مدرستين عسكريتين في بغداد وكركوك، كانت طليعة المعاهد الحديثة في البلاد. ويعود لها الفضل في تخريج عشرات من الضباط العراقيين، واتبع ذلك تأسيس إعدادية عسكرية تؤهل المتخرج منها للدراسة في الكلية العسكرية في اسطنبول(9).

وفي حقل المواصلات، أعاد مدحت باشا تشكيل شركة (الإدارة العثمانية النهرية)، فأصلح بواخرها واشترى بواخر جديدة بأحجام مختلفة، بحيث امتلكت الشركة ثمان بواخر، استخدمت أربع منها في رحلات منتظمة بين البصرة واسطنبول عبر قناة السويس، والأربع الأخرى خصصت للملاحة النهرية في أنهار العراق، فكان ذلك عاملاً مهماً في نمو التجارة الداخلية والخارجية. وبمبادرة من مدحت باشا، أنشأ خط (ترامواي) بطول سبعة كيلومترات بين الكرخ والكاظمية من شركة حكومية وأهلية مساهمة في عام 1871(10).

أصبحت وسائط النقل الحديثة، التي دخلت العراق في وقت مبكر نسبياً، أداة إضافية مهمة لتعزيز الروابط بين الريف والمدينة، ولتكوين السوق الموحدة. ودخلت السفن التي تعمل بقوة البخار إلى العراق بعد اختراعها عام 1807 بمدة وجيزة. فأن شركة بيت لنج "التي تأسست عام 1840 لأغراض تجارية، بدأت بعد مرور مدة على تأسيسها، تسير باخرتين للنقل في نهر دجلة. وعلى الرغم من أن الباب العالي لم يسمح لهذه الشركة باستخدام أكثر من باخرتين، وبالرغم من الضغوط التي كانت تتعرض لها أحياناً، فأنها حققت نجاحات واضحة في مجال عملها، بحيث أن رأسمالها الأصلي أرتفع من 15 ألف باون عند التأسيس إلى 100 ألف باون عشية الحرب العالمية الأولى، وإلى 300 ألف باون في عام 1919" (11).

وفي عهد هذا الوالي المصلح، دخل التعليم الرسمي الحديث إلى بغداد ومدن عراقية أخرى، فأنشئت المدارس الحديثة :المدرسة الرشدية الملكية (المدنية)، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات بعد الابتدائية، ومدرسة الصناعة ومدة الدراسة فيها أربع سنوات بتخصصات متنوعة: الخياطة والتجارة والحدادة والطباعة. ومع ازدياد عدد المدارس في السنوات اللاحقة، ارتفعت نسبة المتعلمين من السكان من 0،5 % عام 1850 إلى نسبة 5 إلى 10 % عام 1900(12).

تأسست غرفة تجارة بغداد في الخامس من نيسان سنة 1884، وفتح" المصرف العثماني " أول فرع له في بغداد سنة 1890، ليتبعه بعد مدة فرعان آخران في كل من البصرة والموصل. وفي أوائل أيار 1912، وصل بغداد " رجال إنكليز " خصيصاً من أجل دراسة الإمكانات المصرفية في البلاد. وأسفرت الزيارة عن تأسيس المصرف الشرقي (مقره في لندن)، وفتح فرع له في بغداد، ومن ثم مجموعة فروع في كل من البصرة والموصل والعمارة وكركوك، وتعزز موقع هذا المصرف إلى درجة "أن الحكومة العراقية بدأت تعتمد عليه، وتتعامل معه منذ لحظة تأسيسها"(13).

وتحول النقد إلى أساس التعامل والتبادل، لتخفيض المقايضة التي كانت سمة أساسية من سمات الاقتصاد الإقطاعي، أفضت هذه الظاهرة إلى ازدياد الحاجة إلى النقد، وإلى تراكم كمياته، بل وحتى إلى تزويره. وبدأت قيمة الأرض تزداد، لتصبح سلعة مرغوبة بعد أن كانت مشاعة بين أفراد العشيرة، بل وحتى متروكة في حالات غير قليلة، في حين أقبل عليها الجميع في المرحلة الجديدة، إذ لم يقتصر الأمر على المتنفذين من أبناء العشيرة، بل أمتد ليشمل البدو والمتنقلين وتجار المدن. ووفقاً لذلك ارتفعت أسعار الأرض عموماً، سواء في الريف أم في داخل المدن وضواحيها، فأن "أثمانها في بغداد وما جاورها" ارتفعت أضعاف الأضعاف "، لاسيما "ما كان واقعاً على أحدى ضفتي دجلة "(14).

أهتم مدحت باشا بالطباعة والصحافة أيضا، إذ أسس مطبعة حكومية باسم (مطبعة الولاية)، وأصدر أول جريدة في العراق حملت أسم (زوراء)، ظهر عددها الأول في بغداد، في 15 حزيران 1869، واستمرت بالصدور مرتين في الأسبوع باللغتين العربية والتركية، استطاعت خلالها أن تقدم خدمة جليلة للثقافة والمجتمع، فكانت مرآة للأدب في العراق في آخر عهود السيطرة العثمانية(15).

أسس مدحت باشا مدينتي الناصرية سنة 1870، والرمادي في سنة 1872، وعدد من المستشفيات ودور الحجر الصحي وبنايات جديدة للدوائر الحكومية ومزرعة نموذجية ومتنزه عام. وعمل على تنظيم الري وإصلاح نظام الضرائب وإنشاء البلديات وحماية الأمن الداخلي بتنظيم (عساكر الأمن) أو (الضبطية)، إلى جانب مصفاة للنفط في بعقوبة ومعمل لإصلاح السفن في البصرة. وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في أهمية عهد مدحت باشا وقيمة إنجازاته للعراق، إذ أن رغبته الشديدة في إدخال معالم الحضارة الغربية في بلد متأخر كالعراق، جعلته يسرع في هذا الميدان بينما كانت الأمور تتطلب الأناة والدرس. مع ذلك، فأن نتائج أعماله جعلت العراق ينتقل إلى مرحلة جديدة أقل جهلاً وتوحشاً مما كان عليه قبلها(16). ومن الممكن عد ولاية مدحت باشا نقطة تحول في حياة بغداد الاجتماعية والفكرية، فهو قد خلب الأذهان بإنجازاته الحضارية التي لم يعهد البغداديون لها مثيلاً من قبل وصارت محور أحاديثهم مدة طويلة(17).

كانت بغداد عند مجيء مدحت باشا إليها محاطة بسور قديم يرجع تاريخه إلى العصر العباسي، فحاول مدحت باشا هدم هذا السور وبناء حدائق ومتنزهات مكانه. والظاهر إنه لم ينجح في إنشاء تلك المتنزهات وصار موضع السور مجموعة من الخرائب، إلا إنه استطاع أن يبني بطابوق (بآجر) السور- وكان من النوع الجيد - عدداً من الأبنية التي ظلت قائمة ينتفع منها الناس حتى عهد متأخر ولا يزال بعضها قائم حتى الآن. لم يكلف مدحت باشا خزينة الحكومة كثيراً في بنائه تلك الأبنية، فإلى جانب الطابوق الذي استمده من سور بغداد، كان يجمع لها الأموال من تبرعات الأهالي، وكان من جملة من تبرعوا لهذا الغرض:الشيخ ناصر السعد ون، وسليمان فائق بك، والأمير إقبال الدولة، ومحمد أفندي، وجميل زادة، والخواجة يوسف الكركوكلي، وهم من أعيان العراق آنذاك (18).

مع ذلك، أثارت بعض إصلاحات مدحت باشا المتزمتين من رجال، فهو في رأيهم "متفرنج"، وأن ما جاء به من تجديد خطر يهدد الدين والأخلاق. ومن أعمال مدحت باشا التي أثارت المتزمتين ضده، تحويله بستان "النجيبية" إلى حديقة عامة وأنشأ فيها جوقاً موسيقياً يعزف الألحان لروادها، وجعل أجرة الدخول إليها خمسة قروش. إلا أن بعض رواد الحديقة بدأوا يشربون الخمر فيها، فأخذ خصوم مدحت باشا يتقولون عليه بأنه هو الذي أباح شرب الخمر فيها (19).

استقال مدحت باشا من منصبه احتجاجاً على قرار أصدره الصدر الأعظم محمود نديم باشا بخصم مبلغ كبير من مصروفات ولاية بغداد وتحويله للعاصمة، وقبلت استقالته وغادر بغداد في 27 أيار 1872 (20).

كانت إصلاحات مدحت باشا وجهوده البداية لمزيد من التطورات البطيئة في تطور المجتمع البغدادي، إذ شهد العراق خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والعقدين الأولين من القرن العشرين تطورات اقتصادية واجتماعية، رافقها تنامي حركة فكرية، تزامنت مع تنافس استعماري للهيمنة على موارده، وقدر لذلك كله أن يؤدي دوراً مؤثراً في مستقبل البلاد.

تناقص عدد سكان العراق على نحو متزايد، نتيجة المحن والكوارث التي مرت به. قدر عدد سكان العراق في العقد السابع من القرن التاسع عشر بما لا يزيد على مليون و280000 نسمة، معدل نموهم لا يتجاوز 1،3%، مما أوصل عدد السكان في أوائل القرن العشرين إلى مليونين وربع المليون. وتوزع السكان في منتصف القرن الماضي إلى نصف مليون من البدو (35%)، وأكثر من ذلك الرقم قليلاً من سكان الريف الذين يمتهنون الرعي والزراعة (41%)، وأقل من ثلث مليون من سكان المدن. وحدث تغير واضح على ذلك الواقع، بفعل تطور التجارة الخارجية الذي كان نتيجة تفاعل بين الطلب الأوربي المتزايد على المواد الزراعية والمواد الخام، الذي اتسع بعد فتح قناة السويس في عام 1869، والمساحات الشاسعة من الأرض وتوافر دائم للأيدي العاملة الضروريتين لإنتاج هذه السلع. ووفقاً لذلك، أخذ الاقتصاد العراقي يتحول بخطوات سريعة من اقتصاد طبيعي قائم على الإنتاج لسد الحاجة المحلية، إلى اقتصاد تسويقي قائم على الربح وإلى الإنتاج لغرض السوق العالمية. وبدخول العراق إلى النظام الاقتصادي الرأسمالي، وارتباطه باحتياجات السوق الدولية، أزداد الإقبال على المنتجات الزراعية والحيوانية، كما ازداد التبادل السلعي لتلك المنتجات زيادة واضحة، وبذلك اتسعت المساحات المزروعة بوتائر سريعة، مما أدى إلى انخفاض نسبة البدو إلى 25% بحلول عام 1890 ، وازدياد عدد السكان إلى مليونين وربع المليون عام 1905، منهم 17% من البدو وحوالي 59% من سكان الريف و24% من سكان المدن. وبسبب ما رافق عملية توزيع الأراضي في عهد مدحت باشا، انحصرت ملكية الأراضي الزراعية في الغالب بيد شيوخ القبائل وأفراد العوائل الغنية من سكان المدن، مما حولهم إلى قوة اجتماعية مؤثرة، وتعززت تلك القوة بفعل التخلف الذي كان سائداً آنذاك. ومع تطور الحركة التجارية - ازدادت قيمة الصادرات من 150000 باون سنوياً (1864- 1870)، إلى حوالي ثلاثة ملايين باون عام 1913- وما رافقتها من مقتضيات جديدة، فظهرت فئة متوسطة (بورجوازية) فرضت نفسها على المجتمع، وقدر لها أن تؤدي دوراً كبيراً في مستقبل العراق(21).

انعكست هذه التطورات على حقل التعليم، فإلى قبيل الحرب العالمية الأولى، لم يزد عدد المدارس الابتدائية في أنحاء العراق على (160) مدرسة ابتدائية منها (13) مدرسة للبنات،واثنتي عشرة مدرسة إعدادية، وافتتحت مدرسة خاصة بالمعلمين ومدرسة تطبيقية تابعة لها، وتأسست مدرسة للحقوق في عام 1908. وعلى الرغم من هذا التطور المتواضع في حقل التعليم، شهد المجتمع ميلاد الفئة المثقفة الحديثة (الأنتلجسيا) التي أدت دوراً مهماً على المستويين الفكري والسياسي. ورافق بداياتها الأولى وعي واضح بواقع البلاد، يرافقه طموح إلى التغيير نحو الأفضل. ومع أن حركة اليقظة الفكرية في العراق لم تكن بالمدى الذي كانت عليه في بلاد الشام، لأنها أقرب إلى الغرب وأكثر احتكاكاً به وأوسع تأثراً بأفكاره، إلا أن الموجات الفكرية المعاصرة صارت تجد لها أصداءً في العراق بما كان يرده من نتاجات أدبية وعلمية مطبوعة، مما أتاح للقراء الذين آخذ عددهم يتزايد، فرصة الإطلاع على آراء المفكرين العرب من مصر والشام الذين تناولوا قضايا عصرهم كالحقوق القومية والإصلاح الاجتماعي. وهكذا ولد تحرك فكري وسياسي جديد في العقود الأخيرة من الحكم العثماني يمكن ملاحظته في حركة التجديد الإسلامية ودواوين عدد من الشعراء العراقيين وعلى صفحات جريدة الزوراء التي كان لها دور بارز في عرض واقع العراق أمام العراقيين(22).

استبشر العراقيون عموماً والبغداديون على نحو خاص بالانقلاب العثماني في 23 تموز 1908، الذي قامت به جمعية (الاتحاد والترقي)، ورفع شعارات الحرية والإخاء والمساواة، إلا أن إتباع سياسة التتريك أدى إلى ابتعاد العراقيين عنهم، فأقدموا على تأسيس نوادٍ ثقافية ظاهرها حماية الدستور وواقعها العمل لإقامة حكم لا مركزي للدولة، إلى جانب أحزاب وجمعيات وفروع للأحزاب والجمعيات العربية التي كان تأسيسها ونشاطها أبرز سمات التحرك السياسي في المشرق العربي. و تميزت هذه المرحلة بتنامي إصدار الصحف التي عبرت عن واقع حال المثقف العراقي عموماً والبغدادي بشكل خاص،إذ ظهرت بين 1908و1914 سبعون صحيفة في العراق، غطت الجوانب السياسية والأدبية، وكانت أكثر الصحف معارضة لسياسة الاتحاديين مما عرضها للملاحقة وكتابها للاعتقال(23).

أصبحت المدن بحاجة إلى خدمات عامة فرضت ظهور دوائر مختصة بذلك، عرفت باسم (بلدية)، التي تحولت إلى أسم شائع ومتداول على نطاق واسع حتى اليوم. ففي مطلع عام 1878،تم تأسيس بلدية الأعظمية، ثم جرى تشكيل دائرة بلدية أخرى في جانب الكرخ في نيسان 1878، وذلك "بناء على جسامة بغداد"، كما ورد نصاً في "الزوراء". وفي عام 1893، استحدثت دائرة بلدية ثالثة في بغداد. ومارس أهل المدن أول أشكال الانتخاب من خلال اختيار رئيس وأعضاء بلدية الكرخ الذي بوشر به في نيسان من عام 1878(24).

أشر تأسيس البلديات واقع التغيير الذي طرأ على كبريات المدن العراقية التي بدأت تخطو خطواتها الأولى باتجاه التحديث. ففي مطلع تموز 1879، "أوقدت المصابيح في بعض المحلات من دائرة البلدية الأولى في بغداد". وقبل أن ينتهي القرن التاسع عشر بسنوات نصبت "دائرة البلدية" بأمر من الوالي حسن باشا "ماكنتي ماء" لتنظيم الإسالة في بلديتي بغداد الأولى والثانية. وبعد مدة قصيرة، "مددت أنابيب متصلة الماء من المصفاة إلى محلات عديدة". وفي أوائل كانون الأول من سنة 1911، تم وضع التلفون بين بغداد والكاظمية، مما دفع الأب أنستاس ماري الكرملي أن يبحث له عن مصطلح يناسب الجهاز السحري الجديد في العربية، فاختار له المسرة(25).

تغير المجتمع المدني البغدادي جذرياً في المرحلة الجديدة، فتنوع تركيبه،وتعقد إلى حد كبير. فتطور وزن وتأثير التجار الكمي على أثر ظهور مئات المحال التجارية والدكاكين الجديدة، وظهرت في صفوف التجار فئة جديدة لم تكن معروفة من قبل، تحولت إلى حلقة وصل بين الأسواق المحلية وأسواق العالم الرأسمالي، وتعرف عادة بالكومبرادور(وهم الوسطاء بين التجار المحليين والأجانب). حذا هؤلاء حذو الأجانب، فأسسوا بدورهم عدداً من شركات التصدير أولاً،ومن ثم شركات للاستيراد بعد ذلك. أدى ذلك إلى اختفاء العشرات في محلات الإنتاج الحرفي التي لم تستطع منافسة البضائع الأجنبية الأقل سعراً والأجود إنتاجاً، فانتقل معظم الحرفيين إلى صفوف الطبقة العاملة الوليدة التي كانت تمثل بدورها حال جديدة في عراق ما بعد منتصف القرن التاسع عشر. ففي عام 1882، تأسست في بغداد ماكنة لصنع الثلج، وقبل الحرب العالمية الأولى بمدة قصيرة، تم تأسيس شركة صغيرة للنسيج في بغداد استوردت لإعمالها أنوالا يدوية حديثة من الخارج (26).

ووفقاً لذلك، فأن هذه التطورات البنيوية في المجتمع العراقي، كما يرى الدكتور كمال مظهر أحمد، تعني "أننا أصبحنا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أمام مجتمع جديد في العراق، والمجتمع الجديد مع الاقتصاد الجديد يفرضان في كل زمان ومكان، وفق قاعدة ثابتة، أفكارا وآراءا ومواقف جديدة تختلف جذرياً عما هو سائد وقديم، وتتخطاهما لتفرض نفسها مع قيمها على الساحة، وهذا بحد ذاته يعد تاريخاً جديداً في وقائعه وحوادثه وظواهره". وكانت بغداد محوراً لهذه التطورات التي انتقلت منها إلى المدن العراقية الأخرى. أن تطور التجارة وتوسعها، ودخول الآلة الحديثة في عملية الإنتاج لأول مرة، والصراعات المتفاقمة التي نجمت عن مشكلة الأرض، وتطورات أخرى متداخلة، تطلبت مثقفين غير تقليديين يفهمون القانون، ويعرفون اللغات، ويجيدون استخدام الآلة الحديثة والأشراف عليها(27).

قدمت المدارس الحديثة، الرسمية منها والتبشيرية ومن ثم الأهلية بعد ذلك، أجيالاً جديدة تحمل أفكارا متجددة ، وتعمل بأسلوب يختلف كلياً عن أسلوب أسلافهم.

فتأسست مدرسة الحقوق في عام 1908، بناء على اقتراح ناظم باشا، لتتحول إلى نواة للتعليم العالي في العراق. وصل عدد طلاب هذه المدرسة في العام 1910 حوالي 118 طالب. وعندما حاول جمال باشا السفاح، الذي تولى ولاية العراق عام 1911 إغلاقها، جاء رد فعل الطلاب ووجهاء بغداد على نية جمال باشا قوياً، فألف الطلاب "جمعية حقوق بغداد" للدفاع عن مستقبل مدرستهم، ووجهوا مع الوجهاء برقيات احتجاج إلى اسطنبول ليفرضوا إرادتهم بالنهاية بالصورة التي أرادوها. وهكذا أصبح للمحامين دوراً مرموقاً في المجتمع البغدادي والعراقي، وازداد دور الفئة المثقفة في العراق كماً ونوعاً،ليصبح دورهم فاعلاً في مجمل التطورات التي حدثت في العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويقدر لونكريك عدد المتعلمين في المدن العراقية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بما يتراوح بين 5 _ 10% من مجموع سكانها، بعد أن كانوا يؤلفون في أواسط ذلك القرن 0،5% منهم(28).

وتشكل ثورة الاتحاديين إضافة جديدة على المجتمع العراقي على نحو واضح،وكانت بغداد مركزاً لهذه المؤثرات، التي انتشرت منها للمدن العراقية الأخرى. فصدر في العراق سبعين جريدة،مع عدد من المجلات كان غالبيتها غير رسمي باستثناء الجرائد الثلاثة :"الزوراء" و"الموصل" و"البصرة". وبدأ دور العمال كماً ونوعاً، يتزايد مع زيادة عددهم والحاجة إلى الأيدي العاملة، فشهدت بغداد إضرابات عمالية، كالإضراب الذي قام به عمال الدباغة في الأعظمية ببغداد في عام 1912،وأدى إلى الاستجابة لمطالبهم ورفع أجورهم. وتكرر الإضراب بعد سنة،إذ نشرت مجلة "لغة العرب" في كانون الثاني من عام 1914 الخبر الآتي: "اعتصاب دباغي الأعظمية : اعتصب دباغو الأعظمية منذ أوائل المحرم (تشرين الثاني 1913)، وطلبوا زيادة أجورهم بنسبة ربع ما كانوا يتعاطون، وتركوا العمل إلى أن أضطر أصحاب المعامل إلى تحقيق رغبتهم، فعادوا إلى أشغالهم. وكان زعيمهم في هذه المرة أحد خريجي المدرسة الابتدائية سابقاً"(29).

ويرى الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد في ذلك الإضراب مؤشر واضحاً على أن دباغي الأعظمية كانوا يؤلفون في تلك الحقبة وزناً عددياً ونوعياً ملموساً في المنطقة، وأن قائد الإضراب الثاني "أحد خريجي المدارس الابتدائية سابقاً" كان عبد الهادي الأعظمي الذي استمر على مواقفه من الفئات الاجتماعية الفقيرة لمحلته، إذ فتح على حسابه الخاص من أجلهم دورة مسائية لمكافحة الأمية في الأعظمية سنة 1924(30).

ويؤشر المؤرخ العراقي نفسه، وهو متخصص بارز في تاريخ العراق المعاصر ان هذه المرحلة التي شملت اكثر من نصف قرن تمثل تغيرا نوعيا واضحا في جميع الميادين،وأن إفرازات ذلك التغيير نقلته إلى مرحلة جديدة تختلف في معظم

ظواهرها وخصائصها عن المراحل التي سبقتها، فيما تشبه في العديد من معطياتها، مع الفارق بحكم عوامل روحية ومادية، ما شهدته العديد من أقطار أوربا الغربية والوسطى في عصر النهضة. من هنا يمكن أن نؤشر العقدين الأولين من بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر بداية لتاريخ العراق الحديث، والحرب العالمية الأولى بداية للتاريخ المعاصر(31).

ومع اتفاقنا مع رأي أستاذنا الدكتور كمال مظهر في تأكيده على أهمية هذه المرحلة التاريخية بالنسبة للعراق عموماً، نؤكد أن بغداد كانت عاملاً فاعلاً ومركزاً لنقل التطور والتحديث في المجتمع العراقي إلى المدن العراقية الأخرى، وعلى نحو خاص الحاضرتين الأخريين :البصرة والموصل،إذ تركزت غالبية الإصلاحات في المجتمع العراقي على بغداد، ودخلت غالبية المبتكرات الجديدة الوافدة من الغرب،كالسيارات والكهرباء ومعامل الثلج والطابوق وغيرها إلى بغداد وانتشرت منها إلى المدن العراقية. إلى جانب ذلك، فأن أكثر المُصلحين والمثقفين الذين أثروا الحياة العراقية في هذه المرحلة كانوا في بغداد. وتركزت غالبية المؤسسات التعليمية الجديدة والصحف في بغداد، ومنها انتقلت إلى بقية المدن العراقية.

يتضح أن الحقبة الممتدة بين 1869و1914، تشكل "حقبة انتقالية Transitional Period، في طريقة حياة وتفكير قرووسطوية إلى العهد الحديث".وبوصف العراق جزءاً من أقاليم الدولة العثمانية، ثار بحركات الإصلاح التي طالت غالبية أقاليم هذه الدولة.وكانت هذه الإصلاحات، في بعض جوانبها ن محاولة من الحكومة المركزية لمحاكاة المؤثرات الغربية في مجالات الحكومة والحرب والحياة الاقتصادية والتعليم.وكان عهد مدحت باشا محفزاً لمزيد من الإصلاحات في مختلف المجالات، التي استمر بعضها بعد رحيله (32).

وكانت المجالات الفكرية الثلاثة التي طالها التحديث هي التعليم والصحافة والأدب الحديث، و أثرت هذه المؤثرات على الجوانب الأخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية. أدت هذه الحقبة الانتقالية إلى إخراج التعليم والمجتمع تدريجياً من "الصبغة الدينية"،التي كانت مهيمنة على المجتمع البغدادي قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فأسهمت مدارس الحكومة ومدارس الإرساليات المسيحية والمدارس اليهودية في توفير معارف جديدة تبتعد عن الأنساق التقليدية الدينية التي كانت سائدة حتى هذه الحقبة. و ركزت هذه المدارس على الإنسانيات واللغات والأدب والتاريخ. إلا أن التعليم والتحديث تركز عموماً على المناطق الحضرية، التي كانت تشكل خمس السكان.وأدت هذه التحولات إلى زيادة المتعلمين في هذه المناطق من 1% في عام 1869 إلى 10% في عام 1917(33).

أثمرت هذه المرحلة الانتقالية في تحديث المجتمع البغدادي.فعشية الحرب العالمية الأولى، كان غالبية ضباط الجيش والموظفين المدنيين في العراق هم من العراقيين، ولم يكن ذلك مألوفاً في الحقبة السابقة. ويمثل الأدب في العراق مرآة معبرة عكست طبيعة المرحلة الجديدة. فحتى نهاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان الأدب العراقي يعكس البنية الفكرية والاجتماعية القروسطوية،إلا أن النصف الثاني من هذا القرن عكس تأثير الأفكار الجديدة والفكر الليبرالي الغربي. وعبر هذا الأدب بإشكاله الشعرية الواقعية. وكانت بغداد أيضاً هي المركز الرئيس الذي احتضن هذه التحولات الجديدة في مجال الأدب. وتنعكس هذه التحولات في قصائد وكتابات الشاعرين العراقيين جميل صدقي الزهاوي (1863- 1936) ومعروف الرصافي (1875- 1945). انتقد كلا الكاتبين المشكلات الاجتماعية والسياسية العثمانية عموماً والعراقية والبغدادية على نحو خاص. فلم يقتنع الزهاوي بالتعليم الديني، فاتجه إلى المعارف الحديثة التي حصل عليها من الإصدارات المحلية والأجنبية.فقرأ مجلة المقتطف القاهرية الشهرية، وكتابات المبشر والطبيب الأمريكي كورنيليوس فأن ديك Cornelius van Dyck، الذي أقام في بيروت منذ سنة 1840 لمدة خمس وخمسين سنة في الإرسالية الأمريكية المسيحية، وألف عدة كتب بالعربية حول الفسلجة وعلم الحياة والفلك. وقرأ كتابات شبلي شميل، وهو من أوائل الكتاب العرب الذين كتبوا عن الدارونية، وألف عدة كتب ومقالات في علم الحياة والفسلجة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر (34).

نشر الزهاوي آراءه الفلسفية والأدبية في الصحف والمجلات البغدادية والمصرية والسورية. وفي عام 1884، أصبح عضواً في هيئة التعليم في ولاية بغداد. وبعد ثلاث سنوات أصبح مديراً لدار نشر ولاية بغداد ومحرراً في القسم العربي لجريدة الزوراء. وتولى عدة وظائف قضائية وفكرية وأدبية. وكان لأفكاره تأثير على النخب المثقفة في بغداد بشكل خاص والولايات العراقية الأخرى عموماً (35).

أما الرصافي فقد درس في الكُتاب ثم في المدارس الحديثة، وانتمى إلى مدرسة محمود شكري الآلوسي لدراسة الأدب العربي. كتب الرصافي العديد من القصائد التي تنتقد العادات البالية للمجتمع العراقي. ويشبه الرصافي الزهاوي في دعواته للأخذ من حضارة الغرب الذي اعتقد أنه سبق الشرق. واعتقد أن الخطوات الأكثر أهمية نحو التطور هي التعليم،لاسيما في العلوم وتحسين وضع المرأة. ووفقاً لذلك، دعا كلا الشاعرين إلى إصلاح الأوضاع الاجتماعية،فكانت قصائدهما انعكاس لواقع المجتمع البغدادي والعراقي (36).

اندلعت الحرب العالمية الأولى في عام 1914، وكان المجتمع البغدادي قد حقق تحولات مهمة أدت إلى قلب تدريجي للتوازن في العلاقات الاجتماعية أبرز مظاهره صعود فئات اجتماعية جديدة. إلا أن هذه التحولات لم تستطع قلب موازين القوى في

المجتمع البغدادي، لأن القوى المحافظة استطاعت استقطاب العديد من أفراد الفئة المثقفة وضمهم تحت جناحها، مما كان يعني فعلياً إضعاف أصوات الآخرين، وانحراف المثقفين عن أداء رسالتهم أو على الأقل تضاؤل طموحاتهم الفكرية، الذين فضلوا هذا الحل على خيار التهميش (37).

مع ذلك، وكما أكد الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد، شهد العراق خلال النصف الثاني في القرن التاسع عشر تحولات بنيوية أثرت في المجتمع البغدادي ونقلته إلى مرحلة تاريخية أكثر تقدماً، إذ أسهمت هذه التحولات الاقتصادية والاجتماعية في إحداث نقلات نوعية في بنية المجتمع البغدادي، وظهور فئات اجتماعية جديدة، مثل البرجوازية وفئة العمال، الذين تنامي دورهم في المرحلة اللاحقة، إلى جانب تطور المجتمع العراقي بنمو الصحافة والتعليم الحديث. وفي كل ذلك، كان للعوامل الخارجية والمؤثرات الغربية دورٌ واضح في هذا التحول.

الهوامش والتعليقات:

1. كمال مظهر أحمد، "رأي للمناقشة الإطار الزمني لتاريخ العراق الحديث والمعاصر"، مجلة الحكمة، بيت الحكمة – بغداد، العدد5، تشرين الثاني (نوفمبر) كانون الأول (ديسمبر)، 1998، ص ص 14-50.

2. ظل العراق حتى عام 1869 وحدة إدارية هي باشوية بغداد، التي أصبحت فيما بعد ولاية بغداد، وانبثقت منها في عام 1879 ولاية الموصل،وفي عام 1884 ولاية البصرة. للتفاصيل انظر:جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد الوالي مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني 1869- 1917، ط2، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة،2001، ص ص 59- 60 ؛ ياسين شهاب شكري، ولاية بغداد 1869 – 1909 دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الموصل، 1994، ص 15؛ محمد جبار إبراهيم،البنية الاجتماعية والاقتصادية وأثرها في الفكر السياسي العراقي

الحديث (1869- 1914)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2006، ص7.

3. كمال مظهر أحمد، المصدر السابق، ص ص 17 – 21.

4. Geoffrey Lewis، Turkey، London، 1963، p.38; سيار كوكب الجميل، تكوين العرب الحديث، الموصل، جامعة الموصل، 1990، ص241.

5. علي الوردي، لمحات أجماعية من تاريخ العراق الحديث، لمجلد، الجزء2، بيروت، 2005، ص ص 250- 251.

6. المصدر نفسه ، ص 249.

7. يوسف كمال بك حتاته الدملوجي، مدحت باشا حياته – مذكراته – محاكمته، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2002، ص ص 223- 231.

8. للتفاصيل أنظر: محمد جبار إبراهيم، المصدر السابق، ص ص 16 – 59.

9. علي الوردي،المصدر السابق، ص ص 253- 255.

10. Abdul Wahhab Abbas Al-Qaysi، The impact of Modernizathion on Iraqi Society during the Ottoman era :A study of intellectual development in Iraq 1869-1917، ph.D Dissertation، univ. of Michigan، 1958، pp. 42- 44.

11. كمال مظهر أحمد، المصدر السابق،ص 25 -26.

12. Abdul Wahhab Abbas Al-Qaysi، op. cit. pp.51-92.

13. كمال مظهر أحمد، المصدر السابق، ص ص 23- 24.

14.المصدر نفسه، ص24.

15. Abdul Wahhab Abbas Al-Qaysi، op. cit. pp 45- 50

16. صالح العابد، العراق عبر العصور، كتاب غير منشور، ص61؛ علي الوردي،المصدر السابق ص ص 264- 266.

17. علي الوردي، المصدر السابق، ص 276.

18. المصدر نفسه.

19.المصدر نفسه، ص 277.

20. يوسف كمال بك حتاته وصديق الدملوجي، المصدر السابق، ص ص 252 -254 ؛ علي الوردي،المصدر السابق ، ص 277.

21. للتفاصيل أنظر :محمد جبار إبراهيم،المصدر السابق، ص ص 16 – 59.

22. Abdul Wahhab Abbas Al-Qaysi، op.cit.pp.52 -90

23. للتفاصيل أنظر: Ibid، pp.92 -106

24. كمال مظهر أحمد، المصدر السابق،ص 27.

25. المصدر نفسه.

26. المصدر نفسه، ص ص 27- 30.

27. المصدر نفسه ، ص 31.

28. المصدر نفسه، ص ص 31 – 35.

29. المصدر نفسه، ص ص 37 – 38.

30. المصدر نفسه، ص ص 38 – 39.

31. المصدر نفسه، ص 39.

32. Abdul Wahhab Abbas Al-Qaysi، op. cit.، pp.208- 209.

33. Ibid.، pp.209- 210.

34. Ibid.، pp. 147 -150.

35. Abdul Wahhab Abbas Al-Qaysi، op.cit.، pp.149- 150

36. Ibid، pp.204 – 205 ; مير بصري، المصدر السابق، ص ص 58 -74.

37. محمد جبار إبراهيم، المصدر السابق، ص 157.

مير بصري،إعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث، ج1، بغداد، وزارة الإعلام، ص ص 31 -47.